﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حِكمةِ جَعلِ خَزَنَةِ سَقَر ملائكةً قليلي العَددِ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ غيرَ مميَّزٍ للمعدود، وكانت الحكمةُ في تعيين هذا العدد غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العددُ ممّا يستقلُّه المتعنِّت فيَزيدُه كُفرًا؛ بيَّن الله ﷻ في هذه الآية حِكمةَ ذلك[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِدَّتَهُمْ﴾: (عدد) أصلٌ يدلُّ على الحسابِ، وضمِّ الأعدادِ بعضِها إلى بعضٍ[2]، ومن ذلك يقال: عدَدتُ الشَّيء، إذا أحصَيتَهُ، ويقال: هم عديدُ الحصى والثَّرى، أي: في الكثرة. وفلانٌ عديدُ بني فلان، أي: يُعَدُّ فيهم[3]، والعِدَّةُ في الأصلِ: اسمُ هيئةٍ مِنَ العَدِّ، فأُطلِقَتْ على الشَّيءِ المَعدودِ، وغلبَ إطلاقُها في الشَّرعِ على المُدَّةِ المُحدَّدةِ لانتظارِ المرأةِ زواجًا ثانيًا؛ لأنَّ انتظارَها مُدَّةٌ معدودةُ الأزمانِ[4]. والمراد بالعِدَّة هنا: العدد[5].

2) ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾: (يقن) أصلٌ يدلُّ على ثُبوتِ الشَّيءِ واستقرارِهِ[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.
(2) الراغب، المفردات: (عدد).
(3) الجوهري، الصحاح: (عدد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 60.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يقن).

ومن ذلك يُقال: تيقَّن الأمرَ، واستَيقَنَهُ، واستيقَنَ به[1]، واليقينُ: هو سكونُ الفَهْمِ معَ ثباتِ الحُكْمِ، وأصلُهُ مِنْ يَقنَ الماءُ، إذا ثبتَ وسكنَ[2]، وقيلَ: اليقينُ مِنْ صفةِ العِلمِ فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ، يقالُ: علمٌ يقينٍ، ولا يقالُ: معرفةٌ يقينٍ[3]. والمراد هنا: ليوقنَ الذين أُعطوا التَّوراة والإنجيلَ أنَّ عدَّة خزَنة جهنَّم موافقةٌ لِما عندهم[4].

3) ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾: (ريب) أصل يدلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخوف[5]، ومن ذلك يقال: رابَني كذا، وأرابَني، إذا رأيتَ منه ما يَريبُكَ وتكرَهُه[6]، وأرابَ الأمرُ: صار ذا رَيْبٍ، واستَرابَ به: رأى منه ما يَريبُه[7]، والارتياب: الشَّكُّ[8]، والرَّيبُ والرّيبة أيضًا: صرفُ الدَّهر وحَدَثُهُ[9]، والحاجةُ، والظِّنَّةُ، والتُّهمةُ[10]. ومعنى ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ هنا: ولا يشكَّ[11].

4) ﴿مَّرَضٌ﴾: (مرض) أصلٌ يدلُّ على ما يخرج به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحَّة في أيِّ شيء كان[12]، والمرضُ نوعان: الأوَّل: مرضٌ جسميٌّ، والثّاني: هو الرَّذائلُ الخُلُقيَّة كالجهل، والجُبن، والبُخل، والنِّفاق، ونحو ذلك[13]، والتَّمريض: حُسنُ القيام على المريض، ويقال: قال فلانٌ قولًا فأمرَضَ، أي: قاربَ الصَّوابَ ولم يبلُغه[14]. والمرادُ بالمرض هنا: الشَّكُّ والنِّفاق[15].

5) ﴿جُنُودَ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّعِ والنُّصرة[16]، ومن ذلك يقالُ: هم جُنْدُهُ، أي: أنصارُهُ[17]، ويقالُ: جنَّدَ الجُنودَ، أي: جمَعَها، وتجنَّدَ فلانٌ، إذا اتَّخذَ جُنْدًا[18]، والجَنَدُ:

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (يقن).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (يقن).
(3) الراغب، المفردات: (يقن).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).
(6) الجوهري، الصحاح: (ريب).
(7) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ريب).
(8) الراغب، المفردات: (ريب).
(9) الخليل، العين: (ريب).
(10) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ريب).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(13) الراغب، المفردات: (مرض).
(14) الخليل، العين: (مرض).
(15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(16) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).
(17) الجوهري، الصحاح، والسّمين، عمدة الحفاظ: (جند).
(18) الزمخشري، أساس البلاغة: (جند).

الأرضُ الغليظةُ[1] الَّتي فيها حجارة، ويقال للعسكر: الجُند؛ اعتبارًا بالغِلْظة، ثمَّ يُقال لكلِّ مجتمَع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: 173]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 24][2]. والمُرادُ بالجنود هنا: جموعُ خَلْقِه تعالى الَّتي من جُملتها الملائكةُ المذكورون[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكـــر سـقـر وخـزنـتـهـا فتنة للضالين وهداية للمهتدين

يقول تعالى ذكره: وما جعَلنا خَزَنة سقر إلّا ملائكةً غِلاظًا شِدادًا، لا يُقاوَمون ولا يُغالَبون، وإنَّما ذكرنا عددَهُم - وهو أنَّهم تسعة عشر - اختبارًا منّا للنّاس؛ ليعلمَ أهلُ الكتاب أنَّ هذا الرَّسول حقٌّ؛ فإنَّه نطقَ بمطابقة ما بأيديهم من الكُتب السَّماوية المنزَلة على الأنبياء قبله، ويَزدادَ الَّذين آمنوا إيمانًا إلى إيمانهم بما يَشهدون من صدقِ إخبار نبيِّهم محمَّد ﷺ، ولا يشكَّ أهلُ الكتاب والمؤمنون، وليقولَ المنافقون، والكافرون: ما الحكمةُ في ذِكر هذا العدد هنا؟! قال الله تعالى: مِنْ مثلِ هذا وأشباهِهِ يتأكَّدُ الإيمانُ في قلوب أقوام، ويتزلزلُ عند آخرين، وله تعالى الحكمةُ البالغة، والحجَّة الدّامغة، وما يعلمُ عددَ جنوده وكثرتَهم إلّا هو تعالى؛ لئلّا يتوهَّم متوهِّم أنَّهم تسعةَ عشرَ فقط، وما ذِكرُ سقر أو العِدَّةِ إلّا موعظةٌ لجميع النّاس[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ:

الاعـتـبـارُ بشـدَّةِ تعـذيبِ الملائكةِ لأهلِ النّار

الواو في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ استئنافيَّة، والجملة مستأنفة لإفادةِ غرَضٍ جديد، وهو بيانُ حِكمةِ

(1) الزبيدي، تاج العروس: (جند).
(2) الراغب، المفردات: (جند).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 269 - 272.

قلَّةِ عددِ خَزَنة سقر، وقد كان ذِكرُ هذا العدد سببَ استهزاء كفّار قريش واستهانتِهم بأمرِ سقر وعذابِها، وفي ذلك تنبيهٌ للغافلين إلى أنَّ العددَ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وإنَّما العِبْرة بشدَّة تعذيبهم وهَوْلِه.

بلاغةُ القصرِ في جملة الاستثناء:

لا مفرَّ للمشركين من تعذيبِ الملائكة

الاستثناء في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ من عُموم الأنواع، أي: ما جعلنا خَزَنة النّار من نوعٍ إلّا من نوعِ الملائكة. وصيغةُ القصر بـ (ما) و﴿إِلَّا﴾ تفيد قلبَ اعتقاد أبي جهلٍ وغيره ما توهَّموه أو تظاهروا بتوهُّمِه أنَّ المرادَ تسعة عشرَ رجلًا، فطمعَ أن يخلصَ منهم هو وأصحابُه بالقوَّة[1]. وفي هذا تيئيسٌ لهم من النَّجاة، ومزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهم.

نكتةُ إسنادِ الجعلِ إلى ضميرِ العظمةِ في الموضعين:

فِعلُ العظيم عظيمُ الشأن

أُسند الجعلُ إلى ضمير العظمة مرَّتين في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لتعظيم شأنِ الجعلِ في الموضعَين بأنَّه جعلُ القادرِ العظيم ﷻ، وفعلُ العظيم عظيمٌ، وإنْ خفيَ وجهُ العظمة فيه على مَن عَميَ قلبُهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الجعلِ ماضيًا:

جعلُ الله تعالى واقعٌ متحقِّق

جيءَ بفعل الجَعلِ على صيغة الماضي في الموضعَين في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ للدَّلالة على أنَّ جَعلَهُ ﷻ خَزَنَةَ سقر ملائكةً أمرٌ واقعٌ، وقد مضى وتحقَّقَ، وكذلك جعلُهُ عدَّتَهُم فتنةً للَّذين كفروا.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾:

شدَّةُ اختصاصِ خَزَنةِ النّار بها

الإضافةُ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ لاميَّةٌ، أي: أصحابٌ للنّارِ، وذلك باعتبارِ كونِهم خزنتَها والقائمينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.

على تعذيبِ أهلِها، وفي هذهِ الإضافةِ إشعارٌ بشدَّةِ اختصاصِهم بها، وأنَّ لهم دُرْبةً عظيمةً في تعذيبِ مَنْ سُلِكَ فيها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصْحَٰبَ﴾:

ملازمةُ خَزَنةِ النّار ومُقارنتُهم لها

المرادُ بأصحابِ النّارِ في قولِهِ تعالى شأنِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾: خَزَنتُها[1]، وقد عُبِّرَ عنهم بلفظِ الأصحابِ؛ للدَّلالةِ على ملازمتِهم للنّارِ ومقارنتِهم لها؛ كمُقارنةِ الصّاحبِ صاحبَهُ، وفي ذلك قطعٌ لأطماعِ مَن يظنُّ أنَّه قادرٌ على طَردِهم منها أو الخلاصِ منهم.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارٌ مخصوصةٌ معهودةٌ، وهي نارُ سقرَ الَّتي تقدَّمَ ذِكرُها في الآياتِ السّابقةِ.

غرَضُ تنكيرِ ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾:

خَزَنةُ النّار من نوعِ الملائكة

تنكيرُ ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ للنَّوعيَّة؛ أي: ما جعَلنا خَزَنة النّار من نوعٍ إلّا من نوعِ الملائكة[2]، لا من نوعِ البشر، وإنَّما جعلهم تعالى ملائكة؛ ليكونوا بخِلافِ جنس المعذَّبين؛ لأنَّ اتِّحاد الجنسِ مظنَّة الرَّأفة والرَّحمة، ولأنَّهم أبعدُ الخلق عن معصية الله تعالى، وأقواهُم على الطّاعات الشّاقَّة، ولأنَّ قوَّتَهُم أعظمُ من قوَّة الجنِّ والإنس[3].

معنى الواوِ في ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾:

قلّةُ عددِ خَزَنةِ سقر غرَّ المشركين

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استئنافيَّة، والجملة مستأنفة لإفادة غرضٍ جديد، وهو التَّنبيهُ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 565.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 709.

على حكمةِ ذِكْرِ العدد القليلِ لخَزَنةِ سقر؛ لعدم ظُهوره، ولدفعِ الإقلالِ منه[1].

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾:

عدَّةُ الملائكةِ أمرٌ عظيمٌ لا هيِّنٌ

الاستثناءُ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفرَّغٌ لمفعولٍ ثانٍ لفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾، تقديرُه: جعَلْنا عِدَّتَهم فتنةً لا غير، ولمّا كانت الفتنة حالًا من أحوال الَّذين كفروا لم يكن مرادًا منها ذاتُها بل عُروضُها للَّذين كفروا، فكانت حالًا لهم، والتَّقدير: ما جعَلْنا ذِكرَ عِدَّتهم لعلَّةٍ وغرَضٍ إلّا لغرَضِ فتنةِ الَّذين كفروا، فانتصَب ﴿فِتْنَةً﴾ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾ على الاستثناء المفرَّغ، وهو قصرُ قلبٍ للرَّدِّ على الَّذين كفروا؛ إذ اعتقَدوا أنَّ عِدَّتهُم أمرٌ هيِّن[2].

بلاغةُ التَّتميمِ والأسلوبِ الحكيمِ:

اليقينُ قرينُ المؤمن، والشَّكُّ والإنكارُ قَرينا الكافر

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تتميمٌ في إبطال توهُّم المشركين حقارةَ عددِ خَزَنة النّار، وهو كلامٌ جارٍ على تقدير الأسلوب الحكيم؛ إذ الكلامُ قد أثارَ في النُّفوسِ تساؤلًا عن فائدة جعلِ خَزَنة جهنَّم تسعة عشر، وهلّا كانوا آلافًا؛ ليكون مرآهم أشدَّ هَوْلًا على أهل النار، أو هلّا كانوا ملَكًا واحدًا؛ فإنَّ قوى الملائكة تأتي كلَّ عملٍ يُسخِّرها الله له، فكان جواب هذا السؤال: أنَّ هذا العدد قد أظهَرَ لأصناف الناس مبلغَ فهمِ الكفّار للقرآن، وإنَّما حصلت الفتنةُ من ذِكر عدَدِهم في الآية السّابقة؛ فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تقديرُه: وما جعلنا ذكرَ عدتهم إلّا فتنةً، ولاستيقانِ الَّذين أوتوا الكتاب، وازديادِ الَّذين آمنوا إيمانًا، واضطرابِ الَّذين في قلوبهم مرضٌ، فيظهَر ضلالُ الضالّين واهتداءُ المهتدين، فالله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.

جعلَ عِدَّةَ خَزَنة النّار تسعة عشر لحكمةٍ أُخرى غير ما ذُكر هنا اقتضَت ذلك الجَعلَ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجَعلِ دونَ الإخبارِ:

الإخبارُ بعِدَّة الملائكة هو السَّببُ الحقيقيُّ لِما ذُكِرَ

إيجادُ خَزَنة سَقر تسعة عشر ليس سببًا لاستيقانِ أهل الكتاب وما عُطِفَ عليه، وإنَّما السَّببُ لِما ذُكِرَ هو الإخبارُ عن عدَدِهم بأنَّه تسعة عشر، وعُبِّر عن الإخبار بالجَعل، لمُشاكلة قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية، بيانُ ذلك: أنَّ الجَعلَ يُطلَقُ على معنيَين:

أحدهما: جعلُ الشَّيء متَّصِفًا بصفةٍ في نفس الأمر. وثانيهما: الإخبارُ باتِّصافه بها، ويُقال له: الجَعلُ بالقول، أي: وما جَعلنا عِدَّتَهم بالإخبار عنها إلّا عددًا يقتضي فِتنتَهم؛ لاستيقانِ أهلِ الكتاب ... ؛ أي: وقلنا ذلك وأخبَرنا به؛ لاستيقانِ أهل الكتاب ...[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿فِتْنَةً﴾:

فتنةُ ذِكر عددِ الخَزَنة عظيمةُ الشَّأن

تنكير ﴿فِتْنَةً﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للتَّعظيم، أي: فتنةً عظيمة الشَّأن، لا يُقادَرُ قَدْرُها، وأيُّ فتنةٍ أعظَمُ من فتنةٍ ينقسم فيها النّاس بين موقنٍ وبين مشكِّكٍ ومكذِّب؟! وافتتانُ الكفرة بعدَدِ الخَزَنة استقلالُهم له، واستهزاؤُهم به، واستبعادُهم أن يتولَّى هذا العددُ القليل تعذيبَ أكثر الثَّقلين[3].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شدَّة تأثير فتنة عدد الخَزَنة في الكافرين

اللّام في قوله جلَّ من قائل: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للملْك، وكأنَّ الفتنة شيءٌ مملوكٌ مسخَّر لهم، وفي ذلك ما لا يخفى من التَّنبيه على شدَّة تأثيرها فيهم. ويجوز أن تكون ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرًا بمعنى اسم الفاعل، أي: فاتنًا للَّذين كفروا، فتكون اللّام للتَّقوية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 357.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

جيءَ بالموصول في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّوصُّل إلى ذمِّهم بصفة الكفر الواقعة في حيِّز الصِّلة، وللإيماء إلى علَّة افتتانهِم؛ وهي كفرُهم وعِنادُهم للحقِّ؛ فالكفرُ أساسُ كلِّ نقصٍ ومذمَّة.

الكفرُ صفةٌ ذميمةٌ، وهو أساسُ الفتنة

بلاغةُ صيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:

عُبِّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ كفرَهُم أمرٌ واقعٌ متحقِّقٌ قبل نزول هذه الآية، وهذا الكفرُ هو علَّة ما هُم فيه من الكِبْر والعِناد للحقِّ وأهله.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

حُذف متعلِّق الكفر في قول الحقِّ ﷻ: ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لظُهوره من السِّياق؛ إذ المرادُ كُفرُهم بما يجبُ الإيمانُ به من وحدانيَّة الله تعالى واليوم الآخر ونحو ذلك.

معنى اللّامِ في ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾:

اللّام في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ متعلِّقة بـ﴿جَعَلْنَا﴾[1]، وهي لام التَّعليل، والمعنى: وما جعلنا العددَ المذكور - وهو التِّسعة عشر - إلّا فتنةً لهم؛ ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب - وهم اليهود والنَّصارى - بنبوَّة محمَّد ﷺ وصدقِ القرآن؛ لأنَّهم يرون أنَّ ذلك موافقٌ لما في كتابهم[2]، ويعلمون أنَّ الرسول لم يقرأها، ولا قرأها عليه أحدٌ، ولكن كتابه يُصدِّقُ كتب الأنبياء؛ إذ كلُّ ذلك حقٌّ يتعاضَدُ من عند الله تعالى[3].

النَّبيُّ ﷺ مصدِّقٌ لمَن قبلَهُ من الأنبياء

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جيءَ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ ﴿وَيَزْدَادَ﴾؛ لأنَّ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 357.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 59.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 333.

حصول الاستيقان وازدياد الإيمان أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة للإخبار بعددِ خَزَنة سقر.

نكتةُ صيغةِ الاستفعالِ في ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾:

السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ للمبالغة، والمُراد بالاستيقانِ: قوَّة اليقين[1]، والمعنى: ليوجِدوا اليقينَ إيجادًا تامًّا كأنَّه بغاية الرَّغبة[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عُبِّر بالموصول في قوله جلَّ ذكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لاستحضارهم بالصِّفة الَّتي توجبُ استيقانَهُم، وهي إيتاؤهُم الكتابَ، ووجهُ ذلك: أنَّهم يجِدونَ ما أخبرَ به القرآن موافقًا لما في كُتُبهم. ويحتمل أن يُراد بهم الَّذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام. ويحتمل أن يُرادَ بهم الكلُّ[3]؛ إذِ الموصولُ من ألفاظ العموم.

مَن أوتيَ العلم والكتاب فحريٌّ به التَّصديق

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أُوتُواْ﴾:

جيءَ بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّ إيتاءَهُم الكتابَ أمرٌ قد مضى وتحقَّق، وذلك ألزَمُ في إقامة الحجَّة عليهم بضرورة تصديقِ ما أخبر به القرآن.

براعةُ البناءِ للمفعولِ في ﴿أُوتُواْ﴾:

بُنِيَ ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ مطلقَ الإيتاء كافٍ في ذلك، من غير احتياجٍ إلى تعيين المُؤتي مع أنَّه معروفٌ أنَّه هو الله[4]، وفي ذلك تفخيمٌ لشأن المُؤتي ﷻ ببيان أنَّ هذا الأمر العظيم لا يتأتَّى إلّا من ذي العظمة والجلال الَّذي له الحكمُ والأمر.

إيتاءُ الكتاب لا يُتصوَّر إلّا من الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 315.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.

دلالةُ تعريفِ الكتابِ:

التَّوراةُ والإنجيلُ شاهدان بصدق القرآن

تعريف الكتاب في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد؛ إذ المرادُ به كتابا اليهود والنَّصارى، وهُما التَّوراة والإنجيل[1]، فهُما يَشهدان بصِدق ما أخبرَ به القرآن الكريم.

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ الاستيقانِ:

الاستيقان المطلوب متعلّقٌ بصدقِ القرآن

حُذف متعلِّق الاستيقان في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إيجازًا لظُهوره من السّياق، والمعنى: ليَستيقنوا صِدقَ القرآن، حيث يجدون هذا العددَ موافقًا لما في كتبهم[2].

غرضُ التَّقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

أهلُ الكتاب أولى بتصديقِ ما في القرآن

قُدِّم أهل الكتاب على المؤمنين في قوله جلَّ ذِكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ باعتبار أنَّ أهل الكتاب أسبقُ زمانًا، وأنَّهم أحرَى بالتَّصديق؛ إذ يجدون ما في القرآن موافقًا لما في كُتُبهم.

نكتةُ عطفِ ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾:

للحقِّ سلطانٌ على كلِّ نفسٍ بعيدةٍ عن الأهواء

قوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ معطوف على ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾[3]. ونكتةُ العطف التَّنبيهُ على أنَّ الإخبار بعدد الخَزَنة كما يترتَّبُ عليه استيقانُ أهلِ الكتاب يترتَّبُ عليه أيضًا ازديادُ إيمانِ المؤمنين، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ الكلام الصّادق يؤثِّر في كلِّ نفسٍ بعيدةٍ عن الأهواء وحظوظِ النَّفس.

دلالةُ فعلِ الازديادِ مضارعًا:

الزّيادةُ في الإيمان كمّيَّةٌ لا كيفيَّة

معنى الفعل (يزداد) في قوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾: "أنَّهم يؤمنون به في جملة ما يؤمنون به من الغيب فيزدادُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 315.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.

في عقولهم جزئيٌّ في جزئيّاتِ حقيقةِ إيمانهِم بالغيب، فهي زيادة كمّيَّةٌ لا كيفيَّة؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمان التَّصديقُ والجزمُ، وذلك لا يقبلُ الزّيادة، وبمثل هذا يكون تأويلُ كلِّ ما وردَ في زيادةِ الإيمان من أقوال الكتاب والسُّنَّةِ وأقوال سلف الأمة"[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيمانُ منبعُ كلِّ خيرٍ وفضيلة

جيءَ بالموصول في قوله ﷻ: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾؛ للتَّوصُّل بما في حيِّز الصِّلة إلى مدحِهم بصفةِ الإيمان الَّتي هي أحبُّ الأوصافِ إلى الله، وللإيماء إلى أنَّ هذا الازديادَ ناشئٌ عن الإيمان الَّذي تتحلَّى به نفوسُهم، وهو منبع كلِّ خيرٍ وفضيلة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

المؤمنُ راسخٌ في إيمانه

عُبِّر عن فعل الإيمان في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّصافهم بالإيمان أمرٌ قد مضى وتحقَّق، وهم ثابتون عليه، متمسِّكون به، ويرتقون فيه درجاتٍ باستمرار.

براعةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

حُذف متعلَّق ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكونه معلومًا، والمعنى: آمنوا بالله تعالى وبصدق النَّبيِّ ﷺ وكلِّ ما يجبُ الإيمان به، كما هو مقتضَى الإيمان المعتدِّ به شرعًا.

نكتة تنكيرِ ﴿إِيمَٰنٗا﴾:

تنكير ﴿إِيمَٰنٗا﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ للتعظيم، أي: إيمانًا عظيمَ الشَّأن رفيعَ القدر، لا يُقادَرُ قدرُ عظمته.

نكتةُ العطفِ:

من جُمِع له بين إثباتِ اليقين ونفي الشَّكِّ فاز بالمطلوب

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ما قبله مع أنَّ الاستيقانَ وازديادَ الإيمان دالّانِ على انتفاء الارتياب؛ لأنَّه إذا جُمع لهم إثباتُ اليقين ونفيُ الشَّكِّ؛ كان ذلك آكدَ وأبلغَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316.

لوصفهِم بسكون النَّفس، ولأنَّ فيه تعريضًا بحال مَن عَداهُم، كأنَّه قال: ولتخالفَ حالُهم حالَ الشّاكّينَ المُرتابين من أهل النِّفاق والكُفر[1]، ولأنَّ الإنسانَ قد تعتريه شُبهةٌ بعد الإيقان، فنُفيَ عنهم ذلك[2].

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

لا ريبةَ تعتري المؤمنين وأهلَ الكتاب في شأنِ خَزَنة سقر

حُذف متعلّق الارتياب في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إيجازًا لظُهورهِ من السّياق، والتَّقدير: ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في صِدق خبرِ القرآن[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

الرَّيبُ لا يعرفُ طريقًا إلى أهل اليقين

عُبِّر بالمضارع المنفيِّ في قول الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار انتفاء الارتياب؛ فإنَّ المضارع يدلُّ على الاستمرار، فإذا دخل عليه النَّفيُ أفاد استمرار الانتفاء، ولم يتخلَّف هذا في حقِّ المؤمنين، وأمّا أهلُ الكتاب فهُم أهلُ عِنادٍ ومُكابرةٍ للحقِّ، فلم يَعملوا بمُقتضاه وإن استيقنته أنفسهم.

نكتةُ صيغةِ الافتعالِ في ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

أهلُ اليقين والحقِّ لا يَطرُقونَ أبوابَ الشَّك

جيءَ بصيغة الافتعال في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لا يشكّون شكًّا يحصل بتعمُّدٍ وتكسُّب[4]، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّهم لا يطرقون أبواب الشَّكِّ والارتياب، وهذا ينطبق على المؤمنين، وأمّا أهلُ الكتاب فكثيرٌ منهم عاندَ الحقَّ مع إقرارِهم في أنفسِهم بصِدقِ ما أخبرَ عنه القرآن.

سرُّ عدمِ نظمِ المؤمنينَ في سِلْكِ أهلِ الكتابِ:

انتفاءُ الرَّيب عن المؤمنين مقترنٌ بإيمانهم

لم يُنظَم المؤمنون في سِلْك أهل الكتاب في نفي الارتياب في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فلم يُقَلْ:

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 652.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 711 - 712.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.

(ولا يرتابوا)؛ للتَّنبيه على تبايُن النَّفيَين حالًا؛ فإنَّ انتفاءَ الارتياب من أهل الكتاب مقارِنٌ لِما يُنافيه من الجُحود، ومن المؤمنين مقارنٌ لِما يقتضيه من الإيمان، وكم بينَهما![1]. يُزاد على ذلك أنَّ المؤمنين عَلِموا وعَمِلوا، والذين أوتوا الكتابَ عَلِموا وعانَدوا، فكان عِلْمُهُم حُجَّةً عليهم وحَسرةً في نُفوسِهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

وضوحُ الدَّلائل يُقوّي الإيمان

التَّعبيرُ عن المؤمنين باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذِكرهم بالموصول والصِّلة الفعليَّة المُنبئة عن الحُدوث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازديادِه، ورُسوخِهم في ذلك[3]؛ لِما رأوا من الدَّلائل الَّتي جعلتهُم في مِثل ضوء النَّهار[4].

نكتةُ عطفِ ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

ذِكـرُ مكابرة الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين تصريحًا بعدَ ذِكرِها تعريضًا

قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ معطوفٌ على ما قبله، والمقصودُ منه ذِكرُ مكابرة الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين في سوءِ فهمِهم لهذه العِدَّة تصريحًا بعد ذكرِه تعريضًا؛ لأنَّه إذا قيل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ شعرَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون بأنَّهم لمّا ارتابوا في ذلك فقد كانوا دون مرتبة الَّذين أوتوا الكتاب؛ لأنَّهم لا ينازعون في أنَّ الذين أوتوا الكتابَ أرجحُ منهم عقولًا وأسَدُّ قولًا[5].

معنى اللّامِ في ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

اللّامُ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316 - 317.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316 - 317.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ لامُ العاقبة[1]؛ أي: لتكونَ العاقبةُ أن يقولوا هذا القولَ الشَّنيعَ.

براعةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

جيءَ بصيغة المضارع في قوله ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القولَ المذكورَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة لزَمن الإخبارِ بعدَدِ خزَنة سقر، ووقوعُهُ بعدَ ذلك آيةُ صِدقِه.

آيـةُ صـدقِ خبرِ الـقـرآنِ عـن قـولِ المذكـوريـنَ وقوعُهُ

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾:

جيءَ بالموصول في قوله ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾؛ للتَّوصُّل إلى ذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة، وللإيماء إلى أنَّ المرضَ الكامنَ في قُلوبهم هو علَّةُ قولهم هذا القولَ الشَّنيعَ القبيح. والمرادُ بهم أهلُ النِّفاق، وقد كان في معلومِ الله تعالى أنَّ النِّفاق سيحدثُ في المدينة، فأخبرَ عمّا سيكون، وعلى هذا تصيرُ هذه الآية معجزةً؛ لأنَّه إخبارٌ عن غيبٍ سيَقَع، وقد وقعَ على وفقِ الخبر، فيكونُ معجزًا[2].

النِّفاقُ سيقعُ في المدينة

وذهبَ ابن عاشور إلى أنَّهم " الذين لم يَزالوا في تردُّدٍ بين أن يُسلموا وأن يَبقَوا على الشِّرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المرادُ بالذين في قلوبهم مرضٌ المنافقين؛ لأنَّ المنافقين ما ظهَروا إلّا في المدينة بعدَ الهجرة والآيةُ مكّيَّة"[3].

التَّردُّدُ نوعُ مرضٍ مذموم

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾:

عُبِّر بالجملة الاسميَّة في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ وجودَ المرض في قلوبهم حقيقةٌ ثابتة، لا شكَّ فيها ولا ارتياب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 712.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

غرضُ تقديمِ القيد ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾:

مرضُ قلوب المنافقين والمتردِّدين محَطُّ الاهتمام

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على ﴿مَّرَضٌ﴾؛ للعناية بكون قلوبهم مُستقَرًّا للمرض، فعليهم التَّنبُّهُ إلى خطرِ ذلك، وللتَّشويق إلى ذِكرِ المؤخَّر - وهو المرض - ليتمكَّن في النَّفسِ عند وُرودِه عليها فضلَ تمكُّن.

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ في ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾:

الإتيانُ بحرف الظَّرفيَّة في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ قلوبَ المنافقين ظرفٌ ومحلٌّ للمرض، استوطنَتْهُ وكأنَّها منبعٌ له.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِهِم﴾:

ضررُ المنافقين والمتردِّدين راجعٌ إلى أنفُسِهم

الإضافةُ في قولِه تبارك شأنه: ﴿قُلُوبِهِم﴾ لاميَّة، فتُفيد أنَّ المرضَ مستقِرٌّ في قلوبهم لا في قلوب غيرهم، وفي ذلك من التَّشنيع عليهم ما لا يخفَى؛ إذ جعلوا قلوبَهُم خَرِبةً بالتَّكذيب والشَّكِّ، ووبالُ كلِّ ذلك راجعٌ إليهم، فينبغي لهُم أن يُبادِروا إلى الإيمانِ والتَّصديق؛ ليُزيلوا عن أنفسِهم وصمَةَ هذا العار.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

مرضُ قلوب المنافقينَ والمتردِّدينَ هائلٌ فظيع

تنكيرُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ للنَّوعيَّة؛ إذ المرادُ به نوعٌ من المرض، وهو مرضُ الكفر والتَّكذيب وسوء النِّيَّة في القرآن والرَّسول ﷺ[1]. ويحتملُ أن يكون التَّنكير للتَّعظيم، أي: مرضٌ هائلٌ فظيعٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه وفظاعَته.

عِلَّةُ تقديمِ الَّذينَ في قلوبِهِم مرضٌ على الكافرينَ:

خُبثُ طويَّة المنافقين والمتردِّدين يَفوقُ كُفرَ الكافرين

قُدِّم الذين في قلوبهم مرضٌ على الكافرين في قوله جلَّ ذِكره: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم أقبحُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

حالًا؛ إذ لم يقتصروا على الكُفر الَّذي تنطوي عليه نفوسُهم، بل زادوا على ذلك الشَّكَّ والمَكرَ والخَديعة ومُعاندةَ الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

إصرارُ الكافرين على كُفرهم، ورسوخُهم فيه

عُبِّر باسم الفاعل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على رُسوخِهم في الكُفر، وأنَّهم جازمون بالتَّكذيب، ومُصِرّونَ عليه، ومُجاهِرونَ به، وساترون لِما دلَّت عليه الأدلَّة من الحقِّ[1].

براعةُ الجمعِ بينَ الإيمانِ والكُفرِ في الذِّكرِ:

شتّانَ بين موقفِ أهلِ الإيمانِ وموقفِ أهلِ الكُفر

في الجمع بين الكُفر والإيمان في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباق، وبذلك يكون أمام السّامع صورتان متقابلتان، إحداهُما في غاية الحُسنِ والجمال، وهي صورةُ الانصياعِ للحقِّ، والأُخرى في غاية القُبح، وهي صورةُ الكُفر والعِناد.

غرضُ الاستفهامِ بـ ﴿مَاذَآ﴾:

عجبُ المنافقين والكافرين من عدَد خزَنة سقر

الاستفهامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ؛ فإنَّ (ما) استفهاميَّة، و(ذا) أصله اسم إشارة، فإذا وقع بعد (ما) أو (من) الاستفهاميَّتين أفادَ معنى (الَّذي)، فيكون تقديرُه: ما الأمرُ الَّذي أرادَهُ الله بهذا الكلام في حالِ أنَّه مَثَلٌ؟! والمعنى: لم يُرِد الله هذا العددَ المُمثَّل به، وقد كُنِّيَ بنفي إرادةِ الله العدَدَ عن إنكارِ أن يكونَ الله قال ذلك، والمعنى: لم يُرِدِ الله العدَدَ المُمثَّل به، فكنَّوا بنفي إرادةِ الله وصفَ هذا العددِ عن تكذيبِهم أن يكونَ هذا العددُ موافقًا للواقع؛ لأنَّهم يَنفونَ فائدته، وإنَّما أرادوا تكذيبَ أن يكونَ هذا وحيًا من عندِ الله[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

شدَّةُ تلبيسِ المنافقينَ والكافرين

جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه جلَّ ثناؤه: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ لدلالتِه على المَلِك الَّذي له جميعُ العظمة[1]، يرون من أنفُسِهم أنَّ سببَ إنكارهم واستغرابهم أنَّ العظيم سبحانه لا يُمكن أن يُمثِّل بهذا العدد، وذلك من تلبيسِهم وتدليسِهم.

معنى الباءِ في ﴿بِهَٰذَا﴾:

الباء في قوله جلَّ ذِكره: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: للتَّعدية، فالمَثَل المذكور - وهو عددُ خزَنة سقر - متعلِّق الإرادة.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في ﴿بِهَٰذَا﴾:

تحقيرُ المكذِّبين شأنَ عددِ الخزَنة

الإشارة في قوله جلَّ ذِكره: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إلى عدَدِ خزَنة سقر[2]. والتَّعبيرُ باسم الإشارة للقريب للتَّقليل والتَّحقير بقرينة المقام، أي: ماذا أراد الله بهذا العدد القليل الحقير في جَنبِ عظمتِه مثلًا[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ المثلِ:

لا تعارُضَ بين العَظَمةِ وبين قلَّة العدد

المَثَل: هو الصِّفةُ العجيبةُ الشَّأنِ الذي يُذكَر للاعتبار. والتَّعبيرُ به في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ذِكر العدد في غايةِ الغرابة، وأنَّ مِثله حقيقٌ بأن تسير به الرُّكبان سيرَها بالأمثال[4]، فتسميةُ ذلك مثلًا على سبيل الاستعارة[5] التَّصريحيَّة. أو أنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّه ليس المرادُ به ظاهرَهُ، بل هو مَثَلٌ لشيء لم يَفهَموهُ، وفهموا أنَّ بينَ استِجماعِه للعَظمة وهذا العددِ عِنادًا، وما عَلِموا أنَّ القليلَ من حيثُ العدد قد يكونُ أعظمَ بقوَّتِه من الكثير العدَد، ويكونُ أدلَّ على استجماعِ العظمة[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(5) السمين، الدر المصون: 10/ 549.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64 - 65.

سرُّ إفرادِ قولِهم بالذِّكرِ معَ دُخولِهِ في فتنتِهم:

إفرادُ قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ بالتَّعليل مع كونِهِ من باب فتنتِهم المذكورة في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإشعار باستقلالِهِ في الشَّناعة[1].

علَّةُ فصلِ جملة التَّشبيه:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه بيانٌ وتفسيرٌ له؛ فالفصلُ يكونُ لكمالِ الاتِّصال، لأنَّ معنى هاتين الجملتين قد اشتملَ عليه معنى الكلام السّابق إجمالًا؛ فإنَّ قولَ الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين: (ماذا أرادَ اللّه بهذا) هو ضلالٌ، وإنّ استيقانَ المؤمنين به هدًى. ويجوزُ أن يُجعلَ جوابًا عن استفهامهم؛ تخريجًا للكلام على الأسلوب الحكيم بحَمْلِ استفهامِهم على ظاهره؛ تنبيهًا على أنَّ اللّائقَ بهم أنْ يَسألوا عن حِكمةِ ما أرادَ اللّه بتلك الأمثال، فيكونُ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ جوابًا لهم ورَدًّا عليهم وبيانًا لحال المؤمنين، وهذا لا يُنافي كونَ الاستفهام الَّذي قبله مكنًّى به عن الإنكار؛ لجواز جمعِ المعنيَين الكِنائيِّ والأصليِّ[2].

لله حِكَمٌ في كلِّ ما يُخبر به

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف:

الكافُ في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ للتَّشبيه، واسمُ الإشارة عائدٌ إلى ما تضمَّنه الكلامُ المُتقدِّمُ من قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿مَثَلًا﴾ بتأويل ما تضمَّنه الكلامُ بالمذكور، أي: مَثَلُ ذلك الضَّلالِ الحاصلِ للَّذين في قلوبهم مرضٌ وللكافرين، والحاصلِ للَّذين أوتوا الكتابَ بعد أن استيقنوا فلم يُؤمنوا؛ يُضِلُّ اللّه مَن يشاءُ أن يُضِلَّهُ من عِباده، ومَثَلُ

اللّه تعالى هو المُتصرِّف في شؤون البشر وأحوالهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 365.

ذلك الهُدى الَّذي اهتداهُ المؤمنون فزادَهُم إيمانًا مع إيمانهم؛ يَهدي اللّه مَن يشاء.

والغرضُ من هذا التَّشبيه تقريبُ المعنى المعقول - وهو تصرُّفُ اللّه تعالى بخَلقِ أسباب الأحوال العارضة للبشر - إلى المعنى المحسوس المعروف في واقعةِ الحال؛ تعليمًا للمسلمين، وتنبيهًا على النَّظر في تحصيل ما ينفع نفوسَهم. ووجهُ الشَّبه هو السَّببيَّة في اهتداء من يهتدي وضلالِ من يَضِلُّ، في أنَّ كلًّا من المشبَّه والمشبَّه به جعلَهُ اللّه سببًا وإرادةً لحكمةٍ اقتضاها عِلمُهُ تعالى، فتفاوت النّاسُ في مدى إفهامهم فيه بين مهتدٍ ومرتابٍ مختلفِ المرتبة في رَيْبِه، ومكابرٍ كافرٍ وسيِّئِ فهمٍ كافرٍ. وهذه كلمةٌ عظيمة في اختلاف تلقّي العقول للحقائق وانتفاعِهم بها أو ضدِّه بحسب اختلاف قرائحهم وفهومهم وتراكيب جِبِلّاتهم المتسلسلة من صوابٍ إلى مِثله، أو من تردُّدٍ واضطراب إلى مِثله، أو من عنادٍ إلى مِثله، فانطوى التَّشبيهُ من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أحوالٍ وصورٍ كثيرةٍ تظهرُ في الخارج[1].

نكتةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شـأنُ الإضـلال والهداية عظيم

الإتيانُ باسم الإشارة للبعيد في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لتعظيم المُشار إليه، وهو ما قبله من معنى الإضلالِ والهدى[2]؛ فإنَّ شأنَ النُّفوس وأحوالَها عظيمُ القدر، فجلَّت قدرةُ خالقِ النُّفوسِ الَّذي له الحكمُ والأمرُ.

نكتةُ الجمعِ ثمَّ التَّقسيمِ في جملتَي التَّشبيه والعطف:

الإضـلالُ والـهـدايـةُ من شؤونه تعالى

محلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ نصبٌ بالنّيابة عن المفعول المطلق؛ لأنَّ الجارَّ والمجرور هنا صفةٌ لمصدرٍ محذوف دلَّتْ عليه الصِّفة، والتَّقدير: يُضِلُّ اللّه مَن يشاءُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 318.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.

ويَهدي مَن يشاءُ إضلالًا وهديًا كذلك الإضلالِ والهدي. وقُدِّمَ وصفُ المفعول المطلق للاهتمام بهذا التَّشبيه؛ لِما يُرشد إليه من تفصيلٍ عند التَّدبُّر فيه، وحصل من تقديمه مُحسِّنُ الجمع ثمَّ التَّقسيم؛ إذ جاء تقسيمُهُ بقوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهۡدِي﴾:

جيء بصيغة المضارع في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الهدايةَ والإضلالَ من شؤونهِ تعالى المستمرَّة المتجدِّدة بحسب ما تعلَّقت به إرادته.

الهدايةُ والإضلالُ شأنان مستمرّان لله تعالى

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

أوثِرَ لفظُ الجلالة في قول الباري ﷻ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لدلالته على تعظيم الحقِّ ﷻ، أي: الَّذي له مجامعُ العظمة ومعاقدُ العزِّ[2]، ولأنَّ الهدايةَ والإضلالَ لا يُتصوَّران إلّا من ذي العظمة والجلال. وفيه أيضًا موافقةٌ لإيثارهم لفظَ الجلالة في سؤالهم المذكور بقوله: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾، فيُشير إلى أنَّ عظمتهُ ﷻ لا تقتضي تركَ ذِكرِ مَثَلِ خزَنَةِ سقر؛ لِما له ﷻ في ذلك من الحِكَم والأسرار.

الهدايةُ والإضلالُ لا يُتصوَّران إلّا من ذي العظمةِ والجَلال

سرُّ تركِ فعلِ الإرادةِ في الجوابِ:

الظّاهر أن يقال: (أرادَ الله أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاءُ ويهديَ مَنْ يشاءُ)؛ ليوافقَ ذِكرَهم فعلَ الإرادةِ في قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾، وإنَّما وُضِعَ الفِعلان في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ موضعَ فِعل الإرادة الوارد في سؤالهم؛ مبالغةً في الدَّلالة على تحقيقِهما؛ فإنَّ إرادَتهما دون وقوعِهما بالفعل، وتجافيًا عن نظم الإضلالِ مع الهداية في سِلْكِ الإرادة؛ لإيهامِه تساويَهما في تعلُّقِهما،

الهدايةُ والإضلالُ واقعان وقوعًا محقَّقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 65.

وليس كذلك؛ فإنَّ المرادَ بالذّات من ذِكر المَثَل هو التَّذكُّر والاهتداءُ، وأمّا الإضلالُ فهو أمرٌ عارِضٌ مترتِّب على سوءِ اختيارِهم[1].

سرُّ تقديمِ الإضلالِ على الهدايةِ:

قدِّم الإضلالُ على الهداية في قوله ﷻ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ ليكون أوَّلُ ما يقرَعُ أسماعَهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوءُهُم ويفتُّ في أعضادهم[2]، ولأنَّ المقصودَ الرَّئيسَ ذِكرُ حال أهلِ الضَّلال مع ذِكر عددِ خزَنة سقر.

المكذِّبون حقيقون بكلِّ مَساءة

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

جيءَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ للدَّلالة على العموم، وأنَّه ﷻ يُضِلُّ مَن يشاء من عباده، وهو كلُّ من عُلِمَ منه اختيارُ الضَّلال، ويَهدي مَن يشاء، وهو كلُّ من عُلم منه اختيارُ الاهتداء[3]. وفي الموصول عمومٌ وإبهامٌ يلائم كثرةَ عددِ كلٍّ من الفريقين.

أهلُ الهداية وأهلُ الضلال كثيرون

دلالةُ الواوِ:

يحتمل أن تكون الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ حاليَّة، والجملة حال، أي: والحالُ أنَّه ما يعلم جنودَ ربِّك إلّا هو، وبلاغة موقعها هنا: أنَّه لمّا كان ما سبقَ ممّا يوهم قلَّة جنودِه تعالى، أتبَعَهُ ما يُزيل ذلك[4].

جنودُ الله أكثرُ ممّا ذُكِر في أمر الخزَنة

ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة كلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ التَّخرُّصات الَّتي يتخرَّصُها الضّالّون ومرضى القلوب عند سماعِ الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة، من نحو ما قالَهُ المكذِّبون في أمرِ خزَنة جهنَّم، يشمَلُ ذلك وغيره، فلذلك كان لهذه الجملة حكمُ التَّذييل[5].

أمورُ الغيب لا مجالَ فيها لإعمالِ العقول والآراء

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 74.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 66.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾:

القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ قصر صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، والمعنى: وما يعلمُ جُموعَ خَلقِ ربِّك الَّتي من جُملتها الملائكةُ المذكورون إلّا هو؛ إذ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حصر المُمْكِنات والوقوف على حقائقِها وصِفاتِها ولو إجمالًا، فضلًا عن الاطِّلاع على تفاصيلِ أحوالِها من كمٍّ وكيفٍ ونسبةٍ[1].

علمُ جموعِ الخلائقِ من خصائصِه تعالى

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ في قول الباري ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ لإفادة استمرار انتفاء العلم بالجنود عن غيره ﷻ، وفي ذلك تنبيهٌ على صفةٍ من صفات الإله الحقِّ ﷻ، وهي العلمُ المحيط بكلِّ شيء؛ الَّذي لا يكون لغيره.

العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ منتفٍ عن الخَلق على الاستمرار

نكتةُ التَّعبيرِ بالجنودِ:

الجنود في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ جمع جند، وهو في الأصل اسمٌ لجماعة الجيش، واستُعير هنا للمخلوقات الَّتي جعلها الله لتنفيذ أمرِه؛ لمُشابهتها الجنودَ في تنفيذ المراد[2].

المخلوقاتُ منقادةٌ لأوامرِ الله تعالى

نكتةُ الإضافةِ في ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾:

إضافةُ الجنودِ إلى الرَّبِّ في قوله ﷻ: ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾ إضافةُ مملوكٍ لمالك، فهؤلاء الجنود لا يخرجون عن طاعة الحقِّ ﷻ، وهم بأمرِه يَعملون.

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ الخطابِ:

جيءَ بعنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ؛ لتشريف

فضلُ الله تعالى سابغٌ على نبيِّه ﷺ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

النَّبيِّ ﷺ، وللتَّعريض بأنَّ من شأن تلك الجنود أنَّ بعضَها يكونُ به نصرُ النَّبيِّ ﷺ[1]، وللإشارة إلى إحسانِ الله تعالى إلى النَّبيِّ ﷺ بأنواع الإحسان، وتدبيرِه أمرَهُ بغاية الإتقان[2].

معنى الواوِ في ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾:

غموضُ الحقائق حثٌّ على تسليم الأمـر للـقـادر العليم

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ معطوف على ما قبله. ونكتة هذا العطف: أنَّه تعالى لمّا ذكر شيئًا من أسرار سَوْق الأخبار يَخفى على البشر، وكان ذلك من رحمته بالعباد ليفتحَ لهم بابًا إلى التذكُّر وتسليم الأمر للقادر، وإلّا أهلكوا أنفسَهم؛ خصَّ بالذِّكر في هذه الجملة أمرًا معيَّنا[3].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

الاتِّـعـاظُ والاعـتـبـار أولى مـن المِـراء والجدال

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ تتمَّة لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على أن يكون جاريًا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: أنَّ النافع لكم أنْ تعلموا أنَّ الخبر عن خزَنة النّار بأنَّهم تسعة عشر فائدتُهُ أن يكون ذكرى للبشر؛ ليتذكَّروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها؛ لأنَّ في ذكر الصِّفة عَونًا على زيادةِ استحضار الموصوف، فغرضُ القرآن الذِّكرى، وقد اتَّخذه الضّالّون ومرضى القلوب لهوًا وسخريةً ومِراءً بالسُّؤال عن جعلهم تسعة عشر، ولم يكونوا عشرين أو مئاتٍ أو آلافًا، وضميرُ ﴿هِيَ﴾ على هذا الوجه راجع إلى ﴿عِدَّتَهُمْ﴾.

ويجوز أن يرجع الضَّمير إلى الكلام السّابق، وتأنيثُ ضميره لتأويله بالقصِّة أو الصِّفة أو الآيات القرآنية. ويحتملُ أن يرجع إلى سقر، وإنَّما تكون ذكرى باعتبار الوعيد بها وذكرِ أهوالها[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 66.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾:

أهمّيَّة الاتِّعاظِ والاعتبار بأخبار الله

القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، فإن كان ضميرُ ﴿هِيَ﴾ راجعًا إلى سقر فالقصرُ متوجِّه إلى مضافٍ محذوف يدلُّ عليه السّياق تقديره: وما ذِكرُها أو وصفُها أو نحوُ ذلك إلّا ذكرى للبشر، وإن كان راجعًا إلى ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾، والمعنى: وما ذِكرُ جنودِ ربِّك أو ما عِدَّة بعضِها إلّا ذكرى للبشر[1]. وأيًّا ما كان ففي أسلوب القصرِ تنبيهٌ على أهمّيَّة الاتِّعاظِ والاعتبار بأخبار القرآن، وكأنَّهُما الغاية الوحيدة لذِكر الأخبار.

غرضُ تنكيرِ ﴿ذِكْرَىٰ﴾:

أخبار الله تعالى مواعظ عظيمة الشأن

تنكير ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم؛ أي: تذكرةٌ عظيمة للبشر[2]. وأيُّ ذكرى أعظمُ من ذكرى تُبصِّر الإنسانَ بحقائق الآخرة، وتُعينه على النَّجاة من أهوالها وأفزاعها؟!.

معنى اللّامِ في ﴿لِلْبَشَرِ﴾:

البشرُ مَناط الذِّكرى

﴿لِلْبَشَرِ﴾ مفعولٌ بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾، واللّام فيه حرفُ جرٍّ لتقوية العامل وتوكيده، وفيه معنى التَّعليل؛ أي: لأجل البشر، فيُفيد أنَّ البشر هم مَناطُ التَّذكير والموعظة، فعليهم أن ينتفعوا به.

دلالةُ تعريفِ البشرِ:

مواعظُ الله تعالى لجميع الناس

تعريفُ البشرِ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ للجنس المستغرِق لجميع أفراده، والمعنى: لجميع البشر وإن كان المنتفعُ بها هم أهلَ الإيمان فقط[3]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه تعالى يُقيم الحجَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 320.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713.

على جميع عباده، ويُنذرُهم جميعَهم، وأنَّه لا يَهلِكُ على الله إلّا هالكٌ مكابرٌ عنيد.

سرُّ إيثارِ لفظِ البشرِ:

أهـلُ البَشـرة الظّاهرة أقبلُ للتَّأثُّر بالنّار

أوثِرَ لفظُ البشر دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾؛ لأنَّ هذا اللَّفظ يدلُّ على ظهور البشرة، والمعنى: تذكرةٌ عظيمة لكلِّ من هو ظاهرُ البشرة، فبدنُهُ أقبلُ شيء للتأثُّر بالنّار؛ لأجل ما يعرفون منها في دنياهم، وإلّا فهو ﷻ قادرٌ على إيجادِ ما هو أشدُّ[1].

بلاغةُ الجناسِ في ذكرِ البشرِ:

اتِّحادُ اللَّفظ واختلافُ المعنى من وجوهِ البلاغة

بين لفظ البشر المذكور في قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ ولفظ البشر المتقدِّم في قوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ﴾؛ التَّجنيسُ التّامُّ[2] إن كان المراد بالسّابق جمعَ بشَرة، وأُريدَ بالمذكور هنا النّاسُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والبلاء والامتحان:

الإخبارُ بعدَد الخزَنة اختبارٌ شديدٌ سقطَ فيه المكذِّبون

الابتلاء: اختبارُ الإنسان بالشِّدَّة والضَّرّاء ليُرى أيَصبرُ أو يَجزع، واختبارُه بالنِّعمة ليُرى أيَشكُر أو يكفُر، والفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغُهُ، وأصلُها: عَرْضُ الذَّهَبِ على النّار؛ ليتبيَّنَ صَلاحُهُ من فساده، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، وقالَ: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، جُعِلَتِ النِّعمةُ فِتْنَةً؛ لأنَّهُ قُصِدَ بها المبالغةُ في اختبارِ المُنعَم عليه بها[4]. والامتحان: تنقية التَّقيِّ والصّادق بإيمانه، وتمييزُه من غير التَّقيِّ والكاذب[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 320.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 277.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 187 - 190.

وقد عُبِّر بالفتنة هنا للمبالغة في الاختبار، وقد كانت نتيجة ذلك أنَّ الكفّار يستهزئون، ويقولون: لمَ لمْ يكونوا عشرين أو أكثر؟ وما المُقتضي لتخصيص هذا العدد بالوجود؟ ويقولون: هذا العددُ القليل كيف يكونون وافينَ بتعذيب أكثر خلق العالَم من الجنِّ والإنس من أوَّل ما خلقَ اللّه إلى قيام القيامة؟ وأمّا أهلُ الإيمان فلا يلتفتون إلى هذين السُّؤالين[1].

الرَّيب والشَّكُّ والمِرية:

الرَّيب أعـمُّ من الشَّكّ

الشَّكُّ: خلافُ اليقين، وهو اعتدالُ النَّقيضَين وتساويهما. والرَّيبُ: هو شكٌّ مقترن بسوء ظنٍّ وتهمةٍ وخوفٍ من عاقبة الأمر. والمِرية: التَّردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشَّكِّ[2].

وقد عُبِّر بالرَّيب هنا؛ للدَّلالة على أنَّ المؤمنين لا يُخالطهم في أمرِ عددِ الخزَنة سوءُ ظنٍّ ولا تهمةٌ ولا خوفٌ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 710.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 584 - 587.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"